مارستانات مصر فى العصر الاسلامى *

بقلم الدكتور أحمد عيسى بك

من عرف من الاطباء بخدمة بيمارستانات احمد بن طولون

١ — محمد بن عبدون الجبلى المذرى، رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ هـ، ودخل البصرة وإلى مدينة فسطاط مصر، ودبّر مارستانها ومهر بالطب ورجع إلى الأندلس سنة ٣٦٠ هـ.

وخدم بالطب المستنصر بالله والمؤيد بالله، وكان قبل أن يتطبب مؤدبا بالحساب والهندسة، قال القاضى صاعد[1] «وأخبرنى أبو عثمان سعيد بن البغونش الطليطلى: أنه لم يلق فى قرطبة أيام طلبه من يلحق محمد بن عبدون الجبلى فى صناعة الطب وله من الكتب كتاب التكسير».

٢ — سعيد[2] بن نوفل طبيب نصرانى كان فى خدمة أحمد بن طولون.

٣ — شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى، مدرس الاطباء بجامع ابن طولون، كان فاضلا له نظم مات فى شوال سنة ٧٧٦ هـ.

٤ — المارستان الاسفل[3] (بالفسطاط) أو بيمارستان كافور الاخشيد

بناه الخازن الذى عمر المقياس بالاهرام، عمره وعمر الميضأتين المرسومة إحداهما لتغسيل الموتى والسقاية، والحمامين المعروفين بحمامى بوران، وأجرى الماء الى الحمامين والميضأة من البئر التى فى الصاغة، وذلك فى سنة ٣٤٦ هـ. قال القضاعى: «إن الاخشيد أمير مصر حبس جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت على المارستان الأسفل والميضأتين والسقايتين وأكفان الموتى»؛ وذكر شيوخ المصريين المؤرخين أن هذا المارستان كان فيه من الأزيار الصينى الكبار والبرانى والقدور النحاس والهوانين والطشوت وغير ذلك ما يساوى ثلاثة آلاف دينار؛ ونقل اليه من المارستان الأعلى الذى بناه ابن طولون أضعاف ذلك؛ وليس به الآن (قول ابن دقماق) شراب ولا دواء يلتمسه فقير، وإنما يطبخ فيه فى السنة (كلمة غير مفهومة فى الأصل) يسير، أكثر الضعفاء لا يصلون اليه، ثم بطل ذلك. وقال تقى الدين المقريزى: هذا المارستان بناه كافور الاخشيد وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الأخشيد بمدينة مصر فى سنة ست وأربعين وثلاثمائة (٩٥٧م).

* راجع «المجلة» عدد يناير سنة ١٩٣٣ وما قبله.

(١) طبقات الامم ص ٨١ طبع بيروت (٢) حسن المحاضرة للسيوطى ص ٢١١ ج ١ (٣) الانتصار ص ٩٩ ج ٣ و ٤

٥ ـ بيمارستان القشاشين

قال القاضى محيى الدين عبدالظاهر[١]: يعنى أن البيمارستان كان أولا بالقشاشين، يعنى المكان المعروف الآن بالخراطين، على القرب من الجامع الأزهر. وهناك كانت دار الضرب بناها مأمون ابن البطائحى وزير الآمر بأحكام الله قبالة البيمارستان. قال تقى الدين المقريزى[٢] فى كلامه عن درب حربة صالح: هذا الدرب على يسرة من سلك من أول الخراطين إلى الجامع الأزهر. كان موضعه فى القديم مارستانا ثم صار مساكن وعرف بحربة صالح وفيه سوق الصنادقيين. وقال عن سوق الصنادقيين: إنه تجاه المدرسة السيوفية، كان موضعه القديم من جملة المارستان.

٦ ـ بيمارستان المقطمين

كان هذا المارستان فى سوق المقطمين خارج باب زويلة بجوار دار التفاح، قال ابن أبى أصيبعة[٣]: وكان أبو الحجاج يكحل فى البيمارستان بالقاهرة، غير الموضع الذى صار حينئذ بالقاهرة بيمارستانا، وهو من جملة القصر، أى غير بيمارستان صلاح الدين يوسف، وكان البيمارستان فى ذلك الوقت فى المقطمين أسفل القاهرة.

وممن خدم فى هذا المارستان شهاب الدين أبو الحجاج يوسف الكحال، كان يكحل فى البيمارستان بالقاهرة، وكان البيمارستان فى ذلك الوقت فى المقطمين أسفل القاهرة. وذلك يطابق زمن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب للديار المصرية، أى قريباً من سنة ٥٦٧هـ ١١٧١م.

٧ ـ البيمارستان الناصرى أو بيمارستان صلاح الدين

لما ملك[٤] السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية (٥٦٧هـ ـ ١١٧١ م) واستولى على القصر[٥]، كان فى القصر قاعة بناها العزيز بن المعز فى سنة ٣٨٤هـ ٩٩٤ م، فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستانا، وهو البيمارستان العتيق الذى داخل القصر، وهو باق على هيئته إلى الآن[٦]، أى إلى زمن المؤلف، ويقال إن فيها طلسما لا يدخلها عل، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيمارستانا. قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر: ولقد سألت المباشرين بالبيمارستان المذكور عن ذلك فى سنة ٦٥٧هـ فقالوا صحيح».

قال أبو السرور البكرى[٧] عند كلامه على المارستان: قصر أولاد الشيخ من جملة القصر

---

(١) صبح الأعشى ص ٣٦٩ ج ٣ (٢) المقريزى ص ٤٠ ج ٢ (٣) عيون الأنباء ص ٢٤٧ ج ٢
(٤) صبح الأعشى ص ٣٦٩ ج ٣ (٥) هو قصر الخلفاء الفاطميين، وسيأتى الكلام عليه بعد (٦) المتوفى أبو العباس القلقشندى سنة ٨٢١هـ ١٤١٨ م (٧) كتاب تحفة الأزهار فى الخطط والآثار: مخطوط بدار الكتب

الكبير،وكان قاعة فسكنها الوزير الصاحب معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ، في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، فعرف به المارستان العتيق. قال القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٧٧ هـ ١١٨١ م: أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير مكانا بالقصر ،وأفرد برسمه من جملة الرباع الديوانية مشاهرة بلغها مائة دينار وغلات جهلتها، واستخدم له أطباء وكحالين وجراحين وشارفا وعاملا وخداما. ووجد الناس به رفقاً وبه تنعماً .وقال ابن عبدالظاهر :كان البيمارستان قاعة بناها العزيز بالله سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م،وقيل إن القرآن مكتوب على حيطانها ، ومن خواصها أنه لايدخلها أحد لظلم بها،ولما قيل ذلك لصلاح الدين يوسف بن أيوب ،قال هذا يصلح أن يكون بيمارستانا،وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا صحيح .

قال أبو الحسين محمد بن جبير [1] الرحالة الأندلسي الكبير ،عند زيارته لمدينة القاهرة سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م ، وذلك في زمن السلطان صلاح الدين : « ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة،وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً .أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً ،وعين فيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية،فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم،وبازاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى،ولهن أيضاً من يكفلهن ،ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين،ولهم أيضا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها،والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد». وقال علي مبارك باشا [2]: لما تولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب السلطنة، وفرق أماكن قصر الخلافة على أمرائه ليسكنوا فيها ، جعل موضعاً منه مارستانا وهو المارستان المشهور بالعتيق،وجعل بابه من حارة ملوخية،وهي حارة قائد القواد قديماً،وموضعه الآن الدار المعروفة بدار عمري الحصري مع ماجاورهما من الدور، كما وجدنا ذلك في حجج الأملاك،وهو بآخر الحارة من جهة بابها الصغير الذي هو من جهة قصر الشوك ؛ وأصل هذا الباب أحد أبواب القصر الكبير الشرقي،وكان يسمى باب قصر الشوك،ويدخل منه إلى البيمارستان العتيق .»

أحمد عيسى

(١) الرحلة ص ٥١ طبع ليدن (٢) الخطط الجديدة ص ٨١ ج ٢